حكاية عز وأمل

بقلم الاستاذ ابراهيم فقيه(الرئيس الفخري للمجلس القاري الافريقي)

كلمات وعبارات، ألفناها وعرفناها، عشناها وعايشناها، مثل : الغربة والاغتراب والمغتربين، الهجرة والمهاجرين و المهجّرين، الإنتشار والمنتشرين... تلك هي كلمات بأبعادها ومعانيها وآمالها وأمانيها ، ليست غريبة على مسامع اللبنانيين الذين عرفوها وتأثروا بها، وتفاعلوا معها منذ زمن بعيد، بل منذ تواجدهم على هذه الارض، كغيرهم من الشعوب على امتداد الكرة الارضية . والهجرة لاتعني الانسان فقط، أوتنحصر فيه بل تنطبق هذه الحالة على كافة الكائنات الحيّة والمخلوفات. فالطيور المهاجرة تهاجر من المناطق الباردة الى الدافئة ، أو من الشمال الى الجنوب، وكذلك الاسماك في البحار والمحيطات ، والشمس تهاجر من الشرق الى الغرب ، وكذلك الرسل والانبياء كانوا يهاجرون لنشر رسالاتهم، والتقويم الاسلامي سمي بالتقويم الهجري، وفي الآية الكريمة " سبحان من أسرى بعبده من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى "، ونبي الله نوح هاجر مع من حمل معه على متن السفينة، فنجوا من الطوفان ، وكليم الله موسى هاجر لأربعين يوماً الى الوادي المقدّس طوى، ليرى وجه الله، وروح الله عيسى" لم يقتلوه، ولم يصلبوه ولكن شبّه لهم به، فهاجر الى جوار العرش، وخاتم الانبياء محمد هاجر من مكة الى المدينة، ليواجه مع الأنصار المشركين، لإعلاء كلمة لا إله الا الله، والشهداء يهاجرون من دار الفناء الى دار البقاء ...

ولطالما هاجر الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة والفنانون عبر احلامهم الى عالم آخر . والحديث على الغربة و الهجرة و الإنتشار بأسبابها ونتائجها موضوع واسع لامجال للغوص في تفاصيله، فما نحن بصدده الحديث عن الاغتراب اللبناني بإختصار خلال فترة من الزمن وبالتحديد في القارة الافريقية ، خلال العقود الخمسين الأخيرة التي عايشتها تقريباً، ومن موقع المسؤولية ، لما لهذه الطاقة الاغترابية من قدرة على دور مؤثر على الواقع اللبناني في مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والتنموية الشامل ، لمدى أهمية الخبرة التي

اكتسبها المغتربون عبر عشرات السنين في بلاد الاغتراب ، وللدور الهام الذي لعبوه ولا زالوا في تنمية وتطوير المجتمعات الحاضنة لهم ، ولأن القوانين و الأنظمة في الاميركتين واستراليا وكندا تسمح لمكتسبي الجنسية في بلادهم بالوصول الى المراكز التي يستحقونها ، والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم، حيث عرفنا شخصيات لبنانية أو متحدرة من أصل لبناني تبوءوا أرفع المسؤوليات والمناصب الرسمية والاجتماعية والاقتصادية والمهنية ، كذلك فإن الكثير من اللبنانيين المغتربين في أفريقيا تركوا بصماتهم ولا يزالون وعبر الأجيال في كافة مواقع المسؤولية ، وفي مجالات التنمية والاقتصاد والعمران ورسموا بصدق جنيهم لوحة رائعة تمثل صلابة الجنوبي واللبناني وقدرته على التواصل والتفاعل والتعايش مع كافة الشعوب، وأطياف المجتمعات ، كما يملكون قدرة هائلة على الوصول الى مبتغاهم و تحقيق أهدافهم مهما كانت الصعوبات، وكثرت العقبات ويبنون امبراطورياتهم في المهجر ، بينما كثيراً ما يصعب عليهم اختراق الحواجز التي تضعها في وجههم الطبقة السياسية الحاكمة، والقوى المؤثرة و المهيمنة على ارض الواقع اللبناني ، لأن الحاكم في لبنان بتعاطى مع المغتربين كبقرة حلوب.

ففي خطابات المسؤولين وعلى منابرهم وعبر شاشاتهم يتغنون بالاغتراب والمغتربين، ويعتبرونهم الجناح الآخر والأهم الذي يحلّق به لبنان ، وعلى أرض الواقع ينظرون اليهم كأرقام عددية ومالية وليسوا كمواطنين يجاهدون خارج الوطن .

فالاغتراب اللبناني حكاية الإرادة الصلبة لشعب عظيم قدره أن يحيا بعز وكرامة مهما كثرت الصعوبات وتعاظمت المعطيات وتراكمت المطبات ، شعب وصفوه بطائر الفينيق ينبعث من بين الرماد ليحلّق عالمياً في سماء الحرية ، بدأت هجرته لينقل الحضارة عبر البحار ، وليعلم الحرف وقواعد التجارة و حب الحياة .

هذا الاغتراب الذي يمثل ملايين المغتربين بين المنتشرين عبر أصقاع الأرض ليحتل مع كل مغترب قصة عز تحكى للأجيال ، حقهم على وطنهم ودولتهم أن تكون الدولة اللبنانية لهم ظهرا وظهيراً، راعياً وحاضناً، أباً واماً. فأكثر من عشرة ملايين مغترب لبناني أو متحدّر يستحقون وزارة خاصة بهم ترعى شؤونهم ، عنيت وزارة المغتربين كأهم الوزارات الكاملة المؤسسات ، وعبر هذه الوزارة يمكن أن تبدأ رحلة الألف ميل عبر الخطوة الأولى لتنظيم شؤونهم كطاقة هائلة تساهم بالشكل الأرقى في تثبيت الدعائم الاقتصادية لإنقاذ لبنان ، وإعداد دراسات علمية وعملانية بين الوطن الأم والبلاد التي يتواجد فيها جاليات لبنانية موعودة . وذلك بدءاَ

من إجراء احصاءات اللبنانيين في الخارج ، لملفات شاملة ، وإعداد دراسات ميدانية للمغتربين في كل بلد يقيمون ويعملون فيه، وتحديد مجال عملهم، ومواقعهم و طاقاتهم وقدراتهم، و تأثيرها في مجالات عملهم و كيفية استثمارها ، عبر استمارات واقعية صادقة/ علمية و عقلانية ، والعمل على قاعدة بيانات ميدانية بكل ما يتعلق بقدرات و امكانات ومناطق إنتشار وتمركز المغتربين ، والإستعانة بها في التخطيط من أجل الإستفادة من تلك القدرات الهائلة ، بما يعزز ثقة المغتربين بدولتهم وربطهم بوطنهم الام ، والعمل على إنتشار غرف صناعة وتجارة بين كافة الدول المتواجدين فيها ، لتبادل الخبرات والصناعات و الإنتاج.

ويمكن للدولة اللبنانية وعبر وزارة المغتربين بالتعاون مع المؤسسات الاغترابية الممثلة لهم كالجامعة اللبنانية الثقافية في العالم و المجلس القاري الافريقي، لدرس حاجات الجاليات، وقدرتها على التفاعل مع المجتمع المضيف والدول المضيفة وطرق تطوير التعاون و إمكانية الإستثمار المزدوج بين الوطن الأم ودول الإنتشار ، كذلك المساعدة في قدرة الفعاليات والطاقات الاغترابية على توطيد العلاقات بين الدولة اللبنانية و أسواقها والأسواق العالمية ، وهنا المفيد جداً إنتشار جمعيات ولجان صداقة وتعاون في المجالات التنموية والاقتصادية والاجتماعية و السياسية والثقافية وغيرها ... وتبادل بعثات متخصصة و إقامة معارض مشتركة وتبادل الزيارات الرسمية والإنتاجية وإنتشار لوبي لبناني في المهجر ضمن التوجيه الوطني والثوابت الوطنية وحماية لبنان لكل اللبنانيين .

لقد لعب الاغتراب اللبناني دوراً أساسياً فاعلاً في التنمية الاقتصادية منذ تواجد المغتربين في البلاد الحاضنة لهم، حيث كان ينمو هذا الدور تدريجياً متأثراً بالمتغيرات السياسية و الاقتصادية الحاصلة في تلك البلاد، ولطالما كان ينعكس هذا الدور الاغترابي الإيجابي فرصة إيجابية للمغتربين أنفسهم ، وتعزيزاً لعلاقاتهم الوطيدة مع البلدان المضيفة لهم حكومات وشعوباً ومؤسسات،لان الغاية الاساسية للمعترب اللبناني حيث تواجد سواء في الاميركيتين وخاصة البرازيل وخيراتها واستراليا واوروبا ، ناهيك عن القارة الافريقية على إمتداد مساحاتها الخضراء ، وكذلك الدول العربية وبعض الدول الأسيوية ، لأن المغترب اللبناني يتمتع بميزة خاصة ، حيث أنه يعتبر أن البلد الذي يعمل وينتج ويعيش فيه هو وطنه الثاني، يتعلق به وبشعبه ودولته، مقيماً أفضل العلاقات مع كافة شرائح المجتمع ، متأثراًبعاداتهم، متعايشاً مع تقاليدهم ، مؤثراً فيهم علماً وثقافة وإجتماعاً، دون أن يتدخل في الشؤون السياسية للبلاد محترماً قوانينها، خاضعاً لانظمتها المرعية

الإجراء ، وكما لم تبخل تلك البلدان بحضانتها للمغترب اللبناني، والتساهل معه، وإفساحها في المجال لتحقيق طموحاته ، فإن اللبناني سواء حصل على جنسية تلك البلاد أم لم يحصل فإنه يعيش مواطنا ناشطاً وفاعلاً دون أن ينسى وطنه الأم لبنان تواجداً ومساهمة في تنمية اقتصاده ومؤسساته الاجتماعية والمدنية ، وحماية وحدته الداخلية ، بالرغم من أن الدولة اللبنانية ومؤسساتها وبعض أنظمتها البالية لم تتح للمغترب دوراً فاعلاً يمكنه من تثبيت تجاربه الناجحة في الخارج داخل وطنه الذي هو بأمس الحاجة الى هذه الآفاق الواسعة من الرؤية المتطورة، التي يتمتع بها والذي مارس ولا يزال بحرية أوسع وإحترام أفضل في بلاد الإنتشار مما أتاح له المساهمة الفاعلة والأساسية في دفع عجلة التنمية في البلاد التي يتواجد فيها جاليات لبنانية وازنة . وظهرت في العالم أسماء مؤسسات وشخصيات هامة و فاعلة معروفة جداًعلى مستوى الكرة الارضية، في عالم المال والاقتصاد والسياسة، ويشكل الإنتشار اللبناني في الخارج رأسمالاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً كبيراً يجب إدراك حجمه والإلتفات الى كيفية توظيفه في سبيل تشكيل لوبي اغترابي ضاغط على الدول ومراكز القرار لدعم القضية اللبنانية و العربية المحقة و العادلة . وكما استطاع الاغتراب اللبناني أن ينجح في تنمية المجتمعات الحاضنة له ، وأن يلعب دوراً رئيسياً في متغيرات السياسة الاقتصادية في تلك البلاد ، إستطاع أن يطور نفسه أيضاً ويفعّل دوره في تنمية التبادل الإستثماري و التجاري بين الدول العربية التي ينطلق منها بنشاطه الاقتصادي ، وهذا يؤكدعلى ضرورة تفاعل القوى الاغترابية اللبنانية وتعاونها بشكل مؤسساتي منظم و مدروس ، وهنا تبرز أهمية الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم ومجالسها القارية ، خاصة المجلس القاري الافريقي العمود الفقري للجامعة ، التي ترعى شؤون وشجون المغتربين في جميع أنحاء العالم . ويبقى للدولة اللبنانية بعداً منتظراً في رعاية هذا الاغتراب وحضانته والإستفادة من تجربته وقدراته، لانه يمثل امبراطورية لاتغيب عنها الشمس ،وحبذا لو وعت الطبقة السياسية الحاكمة في لبنان لأهمية هذه الطاقة المستندة على قدرتها الذاتية دون دعم رسمي لبناني ، هذا قبل استخراج الثروة النفطية والغاز من أرض لبنان وبحره ، فماذا نقول عندما يحين موعد الإستفادة من هذه الثروة المنتظرة إذا أحسنا إدارتها وإستثمارها في الإنعاش الاقتصادي بعد الإنهيار المالي و النقدي الذي يعيشه هذا الوطن .

لقد تميز الاغتراب اللبناني بانفتاحه على المجتمعات والشعوب التي حضنته، وبتفاعله مع البلاد التي لجأ اليها المغتربون سعياً للعمل والعيش الكريم او هروباً من الحروب والمشاكل الامنية و الاقتصادية التي عانى منها لبنان ولايزال منذ أكثر من مائة عام . ولعل شخصية اللبناني وحبه للإنفتاح على الآخر والتفاعل معه،

أكسبه قدرة فائقة على تحمل الصعاب في الغربة من جهة، وفرص النجاح والتفوّق من جهة أخرى ، وشغفه في إكتشاف ما وراء البحار ، وأتاح له سهولة التأقلم والتناغم مع شعوب العالم . كما أن ما ميّز اللبناني المغترب عن غيره من المهاجرين أنه يعتبر البلد الذي يعمل وينتج فيه بمثابة بلده الثاني ، فيساهم في نهضته وعمرانه وتنميته، كما يشارك أهاليه عاداتهم وتقاليدهم وأفراحهم وهمومهم ، ويساهم في حل مشاكلهم . لذا توصل المغتربون الى اكتساب جنسية الدول المضيفة وحازوا على ثقة شعوبها ومسؤوليها ، منذ وطأت أقدامهم تلك الأرض،على إمتداد القارات الى يومنا هذا بنجاح وتفوق، ونسجوا علاقات اجتماعية واسعة النطاق من الإهتمام بالشأن الصحي والاجتماعي والتنموي والثقافي والعملاني والأدبي، كذلك على مستوى التربية والتعليم وفي كافة المجالات .

لايتبادر لأذهان البعض أن الاغتراب اللبناني المنتشر عبر العالم ، والمشع بوجوده في كافة مجالات الحياة أنه يمتلك طاقات هائلة في مجالات العلم والطب والفن والأدب لاتقل أهمية عن غيرهم من اللبنانيين المقيمين على إمتداد الساحة الثقافية التي تختزن قيمة طاقة هائلة الى القيم الانسانية التي تحاكي التاريخ منذ قرون من الزمن .

والكل يعلم أن الاغتراب اللبناني يشكل لها تنظيم آلية للعمل الوطني لكانت شكلت الذراع الاقوى على ترك بصماته في كافة أنحاء المجتمع ولكانت اسست لامبراطورية حضارية منطلقة من وطن صغير الحجم ، كبير الطاقة ، قوي العطاء. لكن الظروف التي مرّ بها هذا الوطن ولا يزال للاسف منذ إعلان كيانه ، لم تسمح له عبر نظامه المتخلف والمثقل بشوائب الطائفية ورواسب الاقطاع بكافة أشكاله القديمة والحديثة ، وقفت عائقاً دون السماح لهذه الطاقة من تحقيق مداها عبر العالم، من تحقيق أمانيهم في بناء مجتمع متقدّم، يحكمه القانون ، وتسوده المواطنة الحقة، لاقامة دولة القانون والمؤسسات ، دولة العدالة و المساواة ، تحتكم لحقوق الانسان وسعادته، لذلك فإن الفعاليات الاغترابية مدعوة اليوم الى توحيد الجهود و الطاقات من أجل تفعيل المؤسسات الممثلة لهم والعاملة من أجل حماية مصالحهم، ونشر ثقافتهم، والإستفادة من تجاربهم وخبراتهم ليتسنى لهم المساهمة الفعالة في حماية الوطن وإنقاذه من الإنهيار القادم بالتعاون و المشاركة مع هيئات المجتمع المدني من المقيمين الساعين لانقاذ وطنهم ، والتأكيد على سيادته و استقلاله في وقت تهبّ العواصف العاتية من كل جانب ، وتهدده الأخطار المنتسرة من كل الجهات الى جانب المخاطر الاقتصادية

والمالية و النقدية والمشاكل الاجتماعية المستعصية على أكثرية المجتمع اللبناني، وكل ما يهدد الكيان ومن فيه ، وليعود للاغتراب اسطورته التي حاكها عبر القرون من الزمن بجهد خارق، وقدرة فائقة، ليحيا الاغتراب ويحيا الوطن .

في مجاهل الاغتراب